

لشموره حتى يبدأ رد الفعل في أعضائه فينقلب إلى
الروح الجنوني كارعاً من الحمر ما يفقده رشده
فيستولى عليه روح الهدم والتخبط . ولكم رأيته
يختتم نوبه هذه بقذفه كرسيّاً إلى نافذة مغلفة بحلم
زجاجها بقرقة تعم الآذان

وكنّت أراني مندفعاً بالرغم منى إلى تشریح
أخلاق هذا الرجل ، فكان يلوح لى كأنه فرد من
مجتمع غريب لا أعرف له مقراً على هذه الأرض .
فما كنت أعلم أكان هذا الانسان مسيراً فى عمله
ببأس مريض أم بدلال ولد صغير

وكان ديجنه يبدو بخاصة فى أيام الأعياد كأنه
مأخوذ بثورة عصبية فىأتى بأعمال صبيانية يحتفظ
فيها بكل برودة خلقه فكان من يراه لا يبالك من
الاستغراق فى الضحك . وقد أقنعتنى يوماً بأن
أخرج للتنزه معه وحدنا عند الغسق فارتدينا
أثواباً غريبة الشكل وقنعنا وجهينا وحمل كل
منا آلة موسيقية وذهبنا على هذه الصورة تأهين فى
الأحياء الصاخبة محتفظين برصانة أرباب الفنون ؛
وصادفنا فى تجوالنا عربية كان سائقها تدب فيه
النماس فنام على مقعده فسارعنا إلى حل أربطة
الفرسين ثم تقدمنا إليه وصحبنا به فأفاق ، وركبنا
العربة طالبين منه إيصالنا ، وما لوح المسكين بسوطه
فى الهواء حتى ذهب الفرسان خبيكاً وبقي هو فى
عربيته مشدوهاً ، وتوجهنا بعد ذلك إلى الشاترايزيه
فرأى ديجنه عربية تنقدم نحونا فاعترضها وأصر
السائق بالوقوف وتهدهده بالقتل إن لم يترجل عن
مقعده ؛ وإذ نزل الرجل عند إرادته مذعوراً أمره
بالانبطاح على الأرض معرضاً نفسه لأوخم العواقب ؛
ثم فتح باب العربة كأنه قاطع طريق فرأينا شاباً
وسيدة استولى عليهما الرعب الشديد ؛ وأمرنى ديجنه
بمجاراته فيما سيفعل ، فأخذ يقفز من الباب ليعود

مَنْ أَعْمَاقِ النَفْسِ



استغراق فى العَصْرِ

للفريدى سويه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

وما كانت هذه الحياة المضطربة تخلو من
أوقات لها لذتها وصفاتها ، فقد كان معاشرو
ديجنه من الطبقة الراقية وأكثرهم من أرباب
الفنون ، فكنا نمضى أياى عديدة يسود سمرنا الخليلع
فيها ما يبعد جد البعد عن الفجشاء ؛ وكان أحد
الصحاب عاشقاً مغنية مشهورة تشجينا بصوتها
الساحر الحزين . ولكم جلسنا إلى المائدة فنسينا
ما عليها من طعام مستغرقين فيما يثير إنشاد هذه
المغنية فى نفوسنا من حنين ؛ ولكم درنا بأفداح
الشراب ونحن نصغى إلى أحداً باقى علينا بصوت
عميق رائع بعض مقطوعات من لامارتين ؛ فكنا
نؤخذ بعمانيها حتى كأن تفكيرنا حصر فى دائرة
منها ؛ فكانت تمر الساعات دون أن نشعر بها ، حتى
إذا جلسنا بعدها إلى المائدة سادنا سكوت رهيب
وعلقت بأهدابنا الدموع

وكان يتجلى هذا التأثير فى مثل هذه الأوقات
على ديجنه بأكثر من تجليه فى الآخرين وهو
المعروف بيننا بصلاية خلقه وبرودة طبعه ، فكانت
المواطف تتدفق من كلماته ولغته كأنه شاعر ساعة
نزول الإلهام عليه . وما كانت تنتهى نوبة استسلامه

شهوة الصبا من إهابها الغض وعلى خوان عملها
رواية كل صفحاتها صباية وغرام ، وهي لم تلتفت
علماً ولا تعرف عن الآداب والأخلاق شيئاً فتعفى
حياتها تخيط الأثواب أمام نافذتها حيث تمتد طريق
منع رجال الشرطة المرور عليها ليحييها عند المساء
رهط من بنات الهوى الحاملات الأجازات يخطرون
عليها ذهاباً وإياباً ، ما تفعل هذه الفتاة بمد أن تكون
قطعت أصابعها واستنفدت نور عينها منذ الصباح
حتى المساء عاملة في رداء أو في قبعة إذا هي انكأَتْ
عند الغسق إلى نافذتها فرأت ما عمت فيه يداها
الشريفتان لكسب قوت من حولها يرتديه قوام
فاجرة ورأس عاهرة ؟ . . .

ولكم من عربة تقف أمام بابها كل يوم فتخرج
منها فتاة لها رقبها كالعربة التي تستقلها ، وتدخل
على هذه العاملة المسكينة لتجدجها بالفتات الاحتقار
وتقف أمام صراحتها لتجرب مراراً الرداء الذي
انكبت عليه في سواد الليالي لأنجازها . وتخرج
العاهرة من كيسها ستة دنانير يتوهج ذهبها ، وهي
العاملة لا تكسب إلا ديناراً طوال أسبوعها ،
فلا تملك نفسها من النفوس فيها والتأمل فيما تلبس
من حلى ثم تتبعها بأنظارها حتى تتركب عربتها
وتتوارى

وبحى . يوم ينقطع فيه العمل عنها ويسود
الظلام على البيت الذي تظله الفاقة ، وقد انطرح
في إحدى زواياه الأم الربضة ، فتفتح العاملة البائسة
بابها وتمتد يدها قابضة على مجهول يمر على الطريق . . .
هذه هي حكاية الفتاة التي تعرفت إليها .
وكانت تحسن العزف قليلاً على البيانو وتعرف شيئاً
من فن الرسم ومن التاريخ والصرف ، فكانت
كل معارفها على هذا النحو شيئاً يسيراً من كل
شيء . ولكم كنت أنعم النظر في هذه المخلوقة

فيعز من الباب الآخر وأما أتبعه حتى خيل إلى من في
العربة والظلام سائد أن المهاجرين عصابة من اللصوص
يقول لك بعض الناس إن الحياة تولى من
يبتليها اختباراً ؛ ولعالمهم يعجبون في سرائرهم إذ
يصدقهم سامعهم . وهل العالم إلا عاصفة إعصار
لا يشبه أحدها الآخر ؟ فكل ما في الحياة يذهب
بدداً كسرب أطيّار ينتشر في الفضاء الفسيح ، فما
تجد مدينة تتشابه أحيائها ؛ فمن عرف أحدها يبقى
جاهلاً لسايرها ؛ غير أن هذه الأعاصير التي تدور منذ
وجود العالم لم تزل تخرقها سبعة أشباح لا تتغير
على عمر الأجيال : وأولها يسمى الأمل ، والثاني
الضمير ، والثالث الرأى ، والرابع الشهوة ،
والخامس الحزن ، والسادس الكبرياء ، أما الأخير
فيسمى الإنسان

وما كنت وأصحابي إلا كسرب أطيّار ، فبقينا نسوية
إلى أن جاء الربيع نالغ حيناً ، وتركض أحياناً
ولعل القاريء يتساءل أين النساء في هذه
الحوادث وأين هي الفحشاء ؟

وماذا عساني أقول عن هذه المخلوقات الحاملات
اسم النساء واللواتي راودن حياتي كأشباح أحلام ؟
أيمكن للإنسان أن يحتفظ بالذكريات من وقائع لم
يكن فيها شيء من الأمان والآمال ؟

وأين أجد هذه الوقائع الآفة لأثير منها تذكراً ؟
وهل من شبح أشد صمناً منك أيتها المرأة العابرة
كالظل ؟ وهل من انطباع أسرع إلى الزوال منك
في صفحة الذكريات ؟

وإذا كان لا بد من إيراد شيء عن النساء
فلأذكرن منهن اثنتين :

واليك الأولى

أسألك أولاً عما يمكن أن تؤول إليه عاملة
بالخطاطة لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً تندفق

انتهاز الفرصة للآخذ بأحدث لا طائل تحتها . أما (الفالس) فرقصة تتيح لك أن تتمتع بالرأفة التي تضمها نصف ساعة بين ذراعيك وتسير بها بين تصادم الراقصين وهي خفة الجوارح فتكاد لا تعلم إذا كنت تغتصب إرادتها أو تحمي ضعفها . وكما بين الراقصات من يستسلمن إلى قيادتك بخفَر تتدفق الشهوة منه فلا تعلم ما يدور في خلدك أشهوة هو أم حذر ، وتقف مرتاباً في نفسك فلا تدري حين تشد بالراقصة إلى قلبك أنت رنج ثمة أم تنقص كالقصبة الضعيفة بين يديك

لأرب في أن ألمانيا التي اخترعت هذا النوع من الرقص بلاد ما خفيت حقيقة الحب عن أهلها وكنت أخاصر راقصة رائمة الجمال تنتمي إلى المسرح الإيطالي جاءت إلى باريس لتمضية أعياد المرفع ؛ وكانت بزي الراقصات في هيكل إله الخمر ترندى قفطاناً من جلد النمر ، وما كنت رأيت في حياتي امرأة تشبه هذه المرأة في دلالتها ، فقد كانت ممشوقة القد فاحلة القوام تنطلق في خطواتها بسرعة ، ولكنك تخالها تنسحب سحباً وهي تنقص في دلها . واقف بحسب الناظر إليها أنها تتمب مراقبتها في حين أنه لا يحسب بها إلا تكيال مبال بين ساعديه

وكانت هذه الغانية مزينة صدرها بطاقة كبيرة من الورد تورثني نشوة أين منها نشوة الراح ؛ وكانت تنطوى على ساعدي لأقل حركة كأنها من الأماليد عاشقات الشجر ، فكنت إخالها بما فيها من لبونة وعذوبة خلاصة وشاحاً من ناعم الحرير يلغى كذبال الغمام . وكان عقدتها المتدلى من عنقها يهتز في كل دورة من دوران الرقص ضارباً على نطاقها الممدنى فأسمع له صوتاً خافتاً كخفيف الفصون . وكان في حركاتها من الجلال ما يوقني منها أمام كوكب

والأسي يرين على قلبي إذ أرى فيها بداية عمل الطبيعة ونهاية ما يأتيه المجتمع من النشوة ؛ ولكم شخصت بشخصي أمامها إلى ليل مدلم تلوح فيه شرارات ضئيلة من نور عليل
ولكم حارت أن أشعل بمض الجرات الخامدة تحت هذا الرماد ، وقد كانت حلة شعرها بلونه ، فكنا ندعوها (سانديون)

وما كانت تروني تسمح لي بأن أعين لها معلمين فتولي ديجنه الانفاق على تعليمها ، ولكنها عجزت عن بلوغ أى نجاح ، فما كانت المعلم يتوارى عن نظرها حتى تكثف يديها وتبقى الساعات الطويلة محدقة بما وراء نافذتها . وكانت تمر الأيام على هذه الوتيرة فتهدتها يوماً بأننى سأقطع عنها المال إذا هي لم تنجح ، فبدأت بالعمل دون إبداء أية مقاومة ، ولكن بلغنى بمسد ذلك أنها كانت تخرج خلعة من البيت ولا يعلم إلا الله إلى أين كانت تذهب ، فرجوتها قبل أن أمرحها أن تطرز لي كيساً ، وقد احتفظت بهذا الكيس مدة طويلة كذخيرة حزينة وأبقيته معلقاً على جدار غرفتي كأنه رسم لسكل طلل عاف في هذه الحياة
أما الثانية فهذه قصتها :

وكانت الساعة العاشرة مساء ، وكنا قضينا نهراً في الرياضة المتعبة فتوجهنا إلى منزل ديجنه وكان هو قد سبقنا إليه لأعداد ما يلزم لليلة راقصة . ولما دخلنا البهو رأينا مريضاً بالدعوى وبينهم عدد وفير من الممثلات ، وقد بين لي الصحاب السبب في دعوتهن إلى الحفلات فقالوا إن الرجال يتراحمون عليهن وما وصات إلى القاعة حتى اندفعت مع تيار الراقصين ، وكنت شديد الميل إلى رقصة (الفالس) إذ ليس بين أنواع الرقص ما يخالها خفة ورشاقة وليس غيرها إلا حركات لا معنى لها بقصد منها

ورافصها وإذا هو لم ينفذ إليه ذلك الشيء المجهول
أو تلك السكهارب المسكرة التي تنتشر في المرقص
حين تتعالى النفثات ويكشف لخب الجسوم أنوار
المصابيح وما تنتشر هذه السكهارب إلا من
أجسام الحسان فيتكهربن بها أولاً ، ثم تهب منهن
كالبحق المتصاعد من مبخرة تتمايل مع الرياح

واستولى على خيل صريع . وما كنت أجهل
أن الحب يورث هذا الثمل ، وما كنت هذه أول
مرة عرفته ، ولكنني ما كنت أعلم من قبل أن
يوسع امرأة أن تدفع بالقلب إلى مثل هذا الخفوق
وأن تنير في الخيلة مثل هذه الأشباح بجملها
وبأزهارها وبثوب مخطط كجلد الحيوان المفترس ،
وبحركات دوران اقتبستها من أحد المهرجين ،
وبالنفثات معصم بض على كتف ، وذلك دون أن
تنبس بكلمة أو تبدي فكرة واحدة كأنها تترفع
عن الاعتراف بعزتها وسلطانها

وما كان ما أشعر به من الحب بل من الظلم
المحرق ، فاني لأول مرة في حياتي كنت أشعر
باهتزاز أوتار مشدودة منى على غير قاي ، فان تجلى
هذا الحيوان الرائع لعيني كان قد استنطق ورأ غير
أوتار القلب في أحشائي ، وما كنت أحس بنفسي
ما يدفعني إلى أن أقول لهذه الغانية إنني أحببتها
أو أعجبت بها أو حتى لأعلن لها تقديري لجالها ، فما
كنت أشعر أن على شفتي ألا تعطشا للانصاق
بشفتيها لأقول لها : منطقيني بهذين المعصمين
المتراخين وألقى على كتفي رأسك المسائل وارشي
بهذه البسمة العذبة شفتي

لقد عشق جسدي جسدها فكنت من جالها
في سكرة كسكرة الراح ...

ومر بي ديجنه فسألني عما أفعل حيث كنت
فأجبت : من هي هذه المرأة ؟ فقال : وأية امرأة

رائع يتسم لي فأخاها جنينة تنشر جناحيها لتمود
أدراجها . وكأن الموسيقى الشجية الهائلة كانت
تصدح من بين شفتيها وهي مائلة برأسها إلى الوراء
تكالمها الصفائر السوداء ، وقد أرق عنقها من
ثقلها فالتوى

وما انتهى دور الرقص حتى ارتحيت على مقعد
في زاوية القاعة ، وكان قلبي ينبض بسرعة قطعت
أنفاسي ، ففتفت قائلاً : يا لله مما رأيت !
يا المسخ الرائع ! وبالك من أفنى كلهما حسن وجمال
تعرف كيف تلتف وكيف تتعامل بجملها اللين
الأرقط ... لقد علمت لك حية الجنان المغوية كيف
تلتفين على شجرة الحياة وبين أسنانك ثمرة الموت .
يا لك ساحرة تتحكمين في قلوب الناس وتعلمين
ما يفعل بهم هذا الدلال الذي يتجاهل قوته ! وهلا
تدلين أنك تهاسكين وتفرقين وأن كل من لمسك
سيحل به العذاب ، وأن ابتسامك وعبق أزهارك
والاقتراب إلى ملاذك يؤدي إلى الموت ... ذلك
هو سر الخلاوة في افتراق تفرك وفتق أزهارك ،
فأنت تعرفين هدفك عند ما ترسلين معصمك
متراخياً على الكواهل

لقد أعلن الأستاذ هاللي حقيقة مروعة حين
قال : (إن المرأة عصب البشرية والرجل عضلها)
وقد قال هو ومبوبات العالم الجدى نفسه : إن أعصاب
البشر يحوطها إشعاع خفي . وأتباع سبلانزاني
يمتقدون أيضاً أنهم اكتشفوا الحاسة السادسة . إن
في هذه الطبيعة التي تقذف بنا إلى الوجود ثم تدفعنا
إلى الموت وهي هازئة بنامن القوات الخفية ما يكفيها ،
فلا نضيفن إلى ما نتسكع به من ظلمات ظلمات أخرى
ولكن أي رجل يمتقد أنه تمتع بالحياة إذا
هو أنكسر سلطان المرأة عليه ، إذا هو لم يشعر
بارتعاش ساعديه بعد أن يكون خاصر امرأة جميلة

يسحب رجله العرجاء ليطبق على (فينوس) ويشبهها
تقبيلًا ، ولحيته تعبق بدخان مصنعه وهو يحدج
بنظراته الزائغة جسم إلهة الجبال البض مستغرقا
في التحديق بها وهي كل ما يملك فيحاول أن يتنعم
ويتظاهر بالارتعاش مسرة وحبورا ، واسكنه في
الوقت نفسه يتذكر أباه كبير الآلهة (جوبيتر)
الجالس على عرشه في السماء

وحدق ديجنه في وجهي ولكنه لم يجب بل
قبض على يدي وجرنى قائلا :

إنني جدم متعب وأشعر بحزن ، فأنت هذا
الصخب يقتلني . هيا بنا إلى المائدة نستعيد قوانا
وجلسنا إلى مائدة جمعت كل مالد وطاب ،
ولكنني كنت أشاهدها ولا أتمتع بها إذ كانت
شفتهاي ترتجفان في انقباضهما ، وسألتني ماركو عما
بي فبقيت شاخصا كالصنم أمرح أبصاري من
رأسها إلى قدميها صامتًا ذاهلاً

وما تألكت ماركو نفسها من الضحك فضحك
ديجنه معها من بعيد وهو يرقبنا . وكانت أمامها
كأس كبيرة من البلور تنعكس عليها الأنوار
فتتكرر على أضلاعها لتشع بالسبعة الألوان . ومدت
يدها التراخية فملأت الكأس بخمرة قبرصية فيها
حلاوة الشرق ونكهته وقدمتها الى قائلة :

— هذه لك يا بني

أخذت الكأس ثم أعدتها إليها قائلا :
بل لك ولي

ورطبت شفثيها من الحباب وأعادتها إلى
فكرتها دفعة واحدة وأنا أرسل إليها نظرات
حزينة فاتتها ممانها

فسألتني : أردية هي ؟

— لا

— أمتب أنت ؟

تمني ؟ فقبضت على ساعده ومرت به في القاعة ؛
ولحظت الايطالية أننا نتجه نحوها فابتسمت وإذا
تراجعت قليلاً قال ديجنه — آه لقد رقصت مع
ماركو ...

— ومن هي ماركو ؟

— هي تلك المدلة الضاحكة هنالك ... فهل

أنت معجب بها ؟

— لا ، لقد رقصت معها وأحب أن أعرف

اسمها . وهذا كل إعجابي بها

وما قلت هذا إلا لأنني شعرت بشيء من
الحجل ، فتولى ديجنه عني وذهبت أنا نحو الايطالية ،
فاستوقفني قائلا : رويدك ، يا أوكشاف ! ليست ماركو
كسائر البنات ، فهي في عهدة سفير ميلانو وتكاد
تكون زوجة له ، وقد جاءت إلى هذه السهرة مع
أحد أصحاب السفير ، غير أنني سأكلهما في شأنك
فلا أدعك تموت إلا إذا لم يكن بد من موتك .
سأحاول إبقاء ماركو عندنا للمساء

قال هذا وتوجه إليها فسادني اضطراب بمجز
بياني عن تحديده ، وما بدأ بمحادثتها حتى تمشيا
سوية وغابا عن عياني بين ذرافات المدعون

وكنت أناجي نفسي قائلا : أيمكن أن يصيب
حدسي ؟ أنتكون هذه المرأة هي من سأحب ؟
ولكن ما لقائي ولهذا فأنا حوامي وحدها تعمل
عملها بمزلة

وكنت أحاول بمثل هذا التفكير أن أهدي
روعي . وما طال انتظاري حتى شعرت بيد ديجنه
تلق على كتفي وهو يقول : سنذهب إلى المائدة ،
وعليك أن تشبك ساعدك بساعد ماركو فهي تعرف
أنك معجب بها وقد تم الاتفاق ...

فقلت : إسمع ، يا ديجنه ، إن ما أشعر به بفوت
إدراكي ، فكأنني في رؤى أشهد (فولكان) فيها

— لا

— أنشكو صداعا؟

— لا

— ما بك إذا إلا هموم غرام

وظهرت على وجهها علام الجد، وكنت أعلم أنها وليدة نابولي لذلك نبضت إيطاليا في قلبها عندما تفوهت باسم الغرام

وفي هذه الأثناء كانت الدماء تتصاعد إلى الرؤوس والأفداح تتصادم بين الأنامل وبدأت الحدود تصطبغ بلون الخمر فكأنها كانت تبرقع أشد الوجوه اصفرارا كيلا تعلموها من الخجل حمرة. وكانت الضجة تتعالى وتنخفض كأنها نبرات أمواج، والأحداق ترسل لماتها إلى كل صوب ثم تذهب تائهة... فكان في القاعة سمات خفية كانت تخفق فيها كل هذه الأرواح الهائجة في نشوتها، وكل روح تتلمس طريقها إلى سواها

وهبت إحدى النساء من مكانها بين الحشد كما تتعالى على صفحة البحر الساكن أول موجة تتدسم الماصفة فتملو منذرة باقترابها. وقفت وأشارت بيدها لينصت الحضور إليها وكرعت كأنها ثم حولت أناملها إلى شعرها تنثر غداثرها الذهبية على كتفها وعلى صدرها المتهدج بأنفاسه، فما أسمتنا سوى نبرتين مخننقتين وامتقع لونها فجأة فتراخت على مقدمها

وقامت قيامة الحاضرين، فسادهم الهرج والمرج حتى نهاية السمر، فما كان لأحد أن يتميز شيئا وقد اخفط الضحك بالغناء والصراخ

وسألني ديجنه عما أقول في هذا فأجبتني بأني لا أجد ما أقوله، فما لي إلا أن أسد أذني وأمرح أبصاري...

وبقيت ماركو ساكنة وسط هذه المعمة فلم

تتكلم ولم تشرب بل أسندت رأسها بيدها وتاهت في أحلامها. وما كان بلوح على وجهها ما يدل على تأثر أو استغراب؛ فقلت لها:

— أما تريد أن تفعل ما يفعلون؟ لقد سقيتني

خمرة الشرق فهل لك بتذوقها؟

قلت هذا وملأت كأسها دهاقا فرفعتها ببطء إلى فمها وارشفتها حتى التالة، وبعد أن أعادت الكأس إلى المائدة عادت إلى استغراقها

وكنت كلما أدمت النظر إلى هذه المائدة أزداد استغرابا بالحال، فهي لا تسرشي ولا يضايها شيء؛ بل تفعل ما يطلب منها ولا تقوم بأية حركة من تلقاء نفسها فذكرتني بتمثال الراحة الأبدية؛ فقلت في نفسي لو نفخت روح في هذا التمثال لما كان يبدو لنا إلا كماركو ثانية

وكنت أقول لها: أنت طيبة القلب أم أنت شريرة... أحزينة أنت أم صريحة... أبروئك أن تحبي... أهوين المال والملاذات... وأي نوع منها تفضلين... أسباق الخيل أم الخمر أم الرقص... أي شيء يجيبك... وإذا لمجملين؟

فما كنت أظفر منها إلا بجواب واحد على جميع هذا، وهو ابتسامة لا حزن فيها ولا سرور، كأنها تعني الاستسلام وعدم البالاة

وقربت إلى مبسمها شفتي فألقت عليهما قبلة متراخية تشبهها، ثم رفعت منديلها إلى فمها فصرخت بها: ويل لمن سيحبك يا ماركو...

فألقت إلى بنظرة من مقاتها السوداء ثم رفعتها إلى الملا وأشارت بإصبعها بحركة إيطالية لا تقلد ولفظت بتمهل الكلمة الكبرى الخاصة بنساء بلادها: لقد يكون...

وقدمت أشكال الحلوى والفاكهة ونهض

فريق من المدعوين إلى القاعة يدخنون ويلعبون

على شعور غريب يبدد ماثير هذه المحاسن من شهواتي
ولعاني كنت مأخوذاً باستهواء من الاشماع
الحنى فتحكم في ما في هذه الغانية من سكون وجود .
وانطرحت متمثلاً بها على المقعد المستطيل قبالة
مسيرها وتغلغل صقيع الموت في روحي

إن نبضان الدم في العروق يشبه حركة ساعة
غريبة لا تسممك خفقانها إلا في الليل ؛ ففي طيات
الظلام تتوارى مشاغل الانسان حوله فيعود منكشأً
على نفسه ليسمع حركة الحياة فيه

وامتنعت جفوني عن الفمض بالرغم مما تحمات
من متاعب نهاري وأحزانه ، وكانت عيننا ماركو
تحدقان بي فكان كل منا شاخصاً في الآخر وقد
خيم علينا السكون

وقالت : ماذا يشغلك هناك ؟ أما تريد أن تجيء
الى جانبي ؟

فقلت : بلى ... إنك رائحة الجمال يماركو ...
وسمعت صوتاً كأنه نبرة أنين ، وكان ذلك
صوت انقطاع وتر من قيثارة ماركو . وأدبرت
وجهي نحو مصدر هذه الآلة ، فرأيت أوائل أشعة
الفجر تلوح بنورها الباهت سنائر النوافذ

نهضت فأزحت إحدى الستائر فانتشر النضياء
في جوانب الغرفة ووقفت لحظة أنظر إلى السماء
فاذا هي مجلوة صافية الأديم

وكررت ماركو دعوتها إلى ، فأشرت إليها
بأن تنتظر

وكانت هذه الغادة اختارت اسكنائها هذا
الحى البعيد عن مركز المدينة احتراساً ؛ وكان
لها منزل آخر تستقبل فيه أصدقاء عشيقها .
ولعل الغرفة التي كنا فيها ليست سوى موضع
خلوة ، فقد كانت تشرف على حديقة اللوكسنبور
التي رأيتها منبسطة أمامي

وما بقي على المائدة إلا العدد القليل . وكانت بعض
النساء تستسلمن للرقص والبعض الآخر للنعاس ،
وعادت جوقة الموسيقى إلى العزف وتضاءلت أنوار
الشموع فاستبدلت بها سواها ، فتذكرت ولية
(بترون) التي ما كانت تنطق المصاييح فيها حول
من طرحهم السكر على مقاعدهم حتى يتسأل الخدم
إلى المائدة ليسرقوا ما عليها من الأواني الثمينة

ودام الانشاد يتعالى من أفواه اثنتالاة المغنين
الانكليز ذوي الوجوه الشاحبة

ودعوت ماركو الى الانصراف فنهضت
واستندت إلى ذراعي فشيمننا ديجنه قائلا :
— إلى الغد

وخرجت بها من القاعة وكنت كلما اقتربت
إلى منزلها يزداد خفوق فؤادي ويستولى الصمت
على لحيرتي في هذه الغانية التي تترفع عن الشهوة كما
تترفع عن السكره ، وما كنت أدرك السر في ارتجاف
يدي وهي تالف هذه المخلوقة الساكنة الجامدة

وبلغنا غرفة ماركو فاذا هي على مثالها قائمة
تنتشر الشهوة في جوها ، وكانت منارة بمصباح من
الرخام الناصع البياض يرسل في جوانبها أشعة
منكسرة ، وكانت المقاعد كأنها أسرة وثيرة مشدودة
بالحرير على زغب الطيور ، وما دخلت إلى هذا
المسكن حتى هبت في وجهي رائحة عطور تركية
أصابية مستوردة من القسطنطينية ، وهي أقوى
العطور تهيجاً للأعصاب وأشدّها خطراً

وقرعت ماركو جرساً فجاءتها وصيفتها الفتية
وصارت وإياها إلى الحدر وما لبثت حتى انطرحت
فيه على مسيرها وقد أسندت وجهها بيدها متراحية
على عاتقها

ووقفت أمامها أنعم النظر فيها وكنت كلما
موغلت في إعجابي وكلما ازداد انجلاء محاسنها ليستولى

وكنت أشعر في قرارة نفسي بقوة أظالها
فلا أستطيع التحكم فيها فكأنني منها كالقالبض
على قطعة من الفلين يريد إغراقها في الماء فتتملأ
بين أصابعه وتأتي طبيعتها إلا الانفلات إلى سطحه ،
ولكنني عند ما مدت بأنظاري إلى مسارج
الحديقة انتفض قلبي بين جنبي فهب التذكار بي
بيد كل فكرة تراودني . لكم هربت من المدرسة
وأنا صغير لأجأ إلى ظلال هذه الأشجار حيث
كنت أنطرح ويدي كتاب من جاحات الأشعار ،
وتلك كانت جميع ضلالات صباي وآسفا . . .
وتنبت ذكرياتي البعيدة تشارفني من الأشجار
الباسقة العارية من أوراقها وتتطلع إلى من خلال
الأعشاب الذابلة تحت ظلالها . إلى هنا أتيت مرة
للتنزه مع أخي ومعلمي وكنت في الماشرة من
عمرى ، فكنا نرى بقطع الخبز إلى ذرافات الطيور
الجائعة . وهنا جلست مرة منزويًا أنفج على رهط
من الفتيات يرقصن فيرقص قلبي لنفماهن : نعمات
نشد الأطفال ؛ وهنا أيضًا مررت ألف مرة على
الطريق ذاتها في رجوعي من المدرسة ، وأنا أقذف
الحصى برجلي ، وأطارذ بذهني بيتًا من قصائد فرجيل
شخصت مليا أمام هذه المشاهد فهتفت :
— هذه أنت ياطفولتي ، وها أنت هنا يا إلهي
وأدرت طرفي إلى الغرفة فاذا ماركو نائمة وقد
انطفأ المصباح ؛ وكان ضوء النهار قد بدل منظر الغرفة
تبدلا ، فظهر لون الورق الملصق على الجدران ،
وكنت حسبته في الليل مستعيرا زرق الآفاق ،
بلون الأوراق الخضراء وقد أحلها الذبول ، ورأيت
ماركو ، التمثال الرائع ، منطرح على سريرها
ووجهها ممتنع كوجه الأموات
وملكتني رعشة لم أقو على امتلاكها فكنت
أنظر تارة إلى السرير وطورا إلى الحديقة فأشعر

بثقل هائل يخفض رأسي المتعب
وتقدمت بضعة خطوات إلى مكتب كان
مفتوحا قرب نافذة أخرى فجاست مسندا ساعدي
إليه ، والنفت بلا قصد أحرق رسالة تركت
مفتوحة عليه ، وهي لا تتضمن إلا كلمات قليلة ،
فقرأتها مرارا دون أن أفهم معناها حتى انجأت
تدريجيا ، فذعرت منها فجأة ، وأخذت الورقة
بيدي أقرأها ، فاذا هي مشحونة بأغلاط الاملاء .
وقد ورد فيها :

(لقد ماتت أمس عند الساعة الحادية عشرة
ليلا . شعرت بانقباض فدعنتي وقالت لي : ليزون
أنا ذاهبة للقاء رفيقي . افتحي الخزانة وخذي منها
الغطاء المعلق بعنبر فانه كذلك الغطاء ...)

جثوت باكية أمامها فعمدت إلى يدها صارخة :
لا تبكي ... لا تبكي ... ثم أرسلت زفرة ...)
وكان باقي الصفحة ممزقا

يصعب على بيان ما فعلت بي هذه الأسطر
الفاجمة . قلبت الرسالة بيدي فاذا على ظهرها عنوان
ماركو وتاريخ اليوم المنصرم فصرخت : — لقد
ماتت ... ومن هي التي ماتت ؟
وتقدمت نحو السرير مناديا : من هي التي
ماتت ...

وفتحت ماركو عينها فرأنتي مستندا إلى
سريرها والرسالة في يدي فقالت :
— هي أمي ... أنا تريد أن تأتي إلى جنبي ...
ومدت ذراعها نحوى . فقلت لها : — اسكني ...
فأني ودعيني هنا . فانقلبت على جنبها لتستغرق في
نومها ثانية

وشخصت إليها حتى تأكدت أنها لن تسمع
حركتي وتراجعت رويدا وانسجبت من المكان
(ينبع) فليكن فارس